



## دلالات مفهوم الطبيعة في فلسفة جان جاك روسو:

د.خالد الخطاط  
باحث في الفلسفة والتربية  
المغرب

شكلت الطبيعة محورا لكل خطابات روسو الأنثروبولوجية والأخلاقية والسياسية والتربوية. إن حضورها لا يقتصر على أعماله الكبرى، بل هي متواجدة أيضا في كتاباته الخاصة بسيرته الذاتية Autobiographie . مثلت فكرة الطبيعة القاعدة التي انبنت عليها مواقف روسو النقدية ومختلف أطروحاته التي تعبر عن فكره الخاص. لذلك لا يستقيم البحث في نظرية روسو التربوية ولاسيما في التربية الطبيعية دون العودة إلى مفهوم الطبيعة، لأن تحديد هذا المفهوم يعتبر منطلقا لاستقامة الفهم والاستيعاب لمقتضيات وأبعاد الأطروحة التربوية لدى روسو. لكن، وبالرغم من الأهمية التي حظت بها فكرة الطبيعة في فكر روسو إلا أن بعض الدارسين يقرون بأن روسو لم يحدد دلالتها بشكل صريح وواضح<sup>1</sup>.

يتحدث روسو في مؤلفه "إميل" عن طريقته في التربية حسب الطبيعة. فمنذ البداية وفي الجملة الأولى من الكتاب يبسط لنا مبدأه الرئيس: "يخرج كل شيء من يد الخالق صالحا، وكل شيء في أيدي البشر يلحقه الاضمحلال"<sup>2</sup>. ومع أن روسو لا يستعمل كلمة "طبيعة" Nature بمعنى واحد صريح كما أقر هو نفسه بذلك<sup>3</sup>، فإننا سنقف عند

<sup>1</sup> - "إن كل محاولة لتعريف مفهوم "الطبيعة" في إطار فكر جان جاك روسو باءت بالفشل" انظر:

Baczko Bronislaw, Individu et Communauté chez Rousseau, traduit du polonais par Claire Brendhel-Lamhout, paris,1974.P.84.

"إن روسو لم يعط تعريفا للطبيعة، وإنما عمد إلى تبيانها لنا في الإنسان الطبيعي" انظر:

Derathé Robert, « L'homme selon Rousseau », in Etudes sur le Contrat social de Jean-Jacques Rousseau, actes des journées d'études tenues à Dijon du 3 au 6 mai 1962,Paris, Les Belles Lettres, 1964,p.207.

<sup>2</sup> - جان جاك روسو، إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، ترجمة نظمي لوقا، تقديم أحمد زكي محمد، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة،(د.ت).، ص.24.

صعوبات هذا التحديد مع محاولة استنباط المعاني التي من الممكن أن ينسبهما روسو لهذه الكلمة والتي تخدم أهداف هذا البحث وطبيعته .

إن التعاريف الخاصة بـ"الطبيعة" وما هو "طبيعي" Naturel متعددة ومتنوعة وملتبسة في بعض الأحيان. وهو الأمر الذي أكده جون إهرارد Jean Ehrard الذي أشار إلى أن قاموس الأكاديمية الفرنسية Dictionnaire de l'Académie française لسنة 1694 ميز بين سبعة معانٍ لكلمة طبيعة Nature. وهو ما أشار إليه أيضا Dictionnaire de Trévoux سنة 1771 بخصوص صفة "الطبيعي" التي تشتق من كلمة "الطبيعة". وهذه الصعوبة تعود لكون دلالة صفة "الطبيعي" تبقى مرتبطة أشد الارتباط بكل ما يخص الطبيعة، وما ينتمي إليها، وما هو متوافق ونظامها. فروسو نفسه يقر بصعوبة إعطاء الكلمات دائما الدلالات نفسها<sup>4</sup> خصوصا إذا ما كانت اللغة فقيرة، لا تسعف الكاتب في اختيار المصطلحات المناسبة لما ينوي التعبير عنه.

إن كلمة "طبيعي" يلفها نوع من الضبابية. فالطبيعي بالنسبة لروسو يشير في الآن نفسه إلى ما هو أصلي Authentique وأساسي Essentiel في الطبيعة الإنسانية وإلى كل ما هو أصلي Originel أو بدائي Primitive بمعنى كل ما يتعارض مع ما يكتسب خلال صيرورة التطور بالنسبة للنوع الإنساني وأفراده.

إن دلالة كلمة "طبيعة" يمكننا أن نستنبطها من دلالة "طبيعي" الذي يأخذ معنيين على الأقل هما:

---

<sup>4</sup> - "وأنا أكتب، أعملت فكري مئة مرة، فوجدت أنه من المستحيل في مؤلف طويل أن نعطي نفس الكلمات، ليست لدينا لغة غنية بما يكفي توفر لنا العديد من المصطلحات والجمل بحسب تبذل أفكارنا. إن طريقة تعريف كل المصطلحات وإحلال التعريف مكان ما نرغب في تعريفه بشكل دائم هو أمر محمود، لكنه غير عملي... يمكن للتعريف أن تكون جميلة إن لم تكن في حاجة للكلمات لصياغتها. وبالرغم من هذا، فبالرغم من فقر لغتنا فأنا مقتنع من أننا يمكن أن نكون واضحين لا بإعطاء نفس الدلالات لنفس الكلمات دائما، وإنما يمكننا ذلك من خلال كثرة استعمال الكلمة بدلالة محددة ومن خلال الأفكار المرتبطة بها. فكلما وجدنا أن هذه الكلمة تخدم الغرض أمكن لنا تعريفها." انظر:

J.J.Rousseau, Emile ou de l'éducation: p:150.Note(\*)

الطبيعي لا يعني شيئاً آخر سوى ماهية الإنسان وما تتحدد به في الأصل. وهنا يكون المقصود بها الإنسان الطبيعي لا الإنسان المدني. فالإنسان الأول يدل على الطهر والصفاء والنقاء والثاني هو الإنسان الذي فسدت طبيعته Dénaturé من لدن المجتمع الذي غرس فيها معنى الشر والعدوانية.

الدلالة الثانية تضع الطبيعي في تعارض تام مع فكرة التقدم الإنساني Le progrès humain حيث يصبح التطور التاريخي عبارة عن مسيرة انحطاط إنساني تبعدنا عن الخير الثاوي في الطبيعة. وإذا ما "ألغينا هذا التقدم المنكود، وقضينا على أخطائنا ورذائلنا... لصار كل ما في الوجود خيراً"<sup>5</sup>. وهذه الدلالة هي بمثابة صدى للعبارة التي افتتح بها روسو مؤلفه "إميل" حين قال: "يخرج كل شيء من يد الخالق صالحاً، وكل شيء في أيدي البشر يلحقه الاضمحلال"<sup>6</sup>.

من خلال الدالتين السالفتين الذكر. يستوقفنا سؤالان أساسيان هما:

❖ هل يفهم من الدلالة الأولى لكلمة "طبيعي" أن روسو ينادي بعودة الإنسان الطبيعي؟

❖ هل ينبغي للإنسانية أن تتراجع عن تقدمها لتتزع الشر منها ولتعاقد الخير الذي تجود به الطبيعة على الإنسان الطبيعي؟

شن روسو هجومات على الحالة المدنية. فما عرفته من تقدم على مستوى العلوم والفنون حدا ببعض المفكرين والدارسين إلى اعتبار فكر روسو منطوقاً على دعوة إلى الأصل: كما هو الحال بالنسبة لفولتير Voltaire الذي بعث برسالة إلى روسو بتاريخ 30 غشت 1755 يعلق فيها على ما جاء في الخطاب الثاني بطريقة ساخرة جاء فيها: "لم يحدث قط أن استخدم أحدهم كل هذا الذكاء بغية جعلنا أغبياء حتى تعاترينا الرغبة في المشي على أربع قوائم عندما نقرأ كتابك"<sup>7</sup>.

<sup>5</sup>- جان جاك روسو، إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، مصدر سابق، ص.213.

<sup>6</sup>-المصدر نفسه، ص.24.

<sup>7</sup>- Voltaire, Lettre à J-J.Rousseau (Délices,30 août1755)

إن روسو يرفض هذا التأويل رفضاً قاطعاً. ففي رده على رسالة فولتير المذكورة يؤكد على أن مطلبه لا يمكن أن يحققه إلا من كان إلهاً.<sup>8</sup> ومهما يكن الأمر فإن الدعوة إلى الأصل (حالة الطبيعة) تبقى غير قائمة بالمعنى الذي صورته لنا فولتير للاعتبارات التالية:

أولاً: حالة الطبيعة<sup>9</sup> تبقى مجرد افتراض نظري. انهم بشرح وتفسير تكون المجتمعات الإنسانية. فروسو يتصورها كاستدلالات شرطية، ما يجعل مسألة العودة إلى هذه الحالة أمراً محالاً، مادام أن هذا الإنسان الطبيعي لم يوجد قط. إنه لا يجب أن نأخذ البحوث التي قد نخوض فيها بصدد موضوعنا هذا مأخذ الحقائق التاريخية، وإنما كاستدلالات افتراضية وشرطية أخرى بها أن توضح طبيعة الأشياء من أن تبين أصلها الحقيقي، وهي شبيهة بالبحوث التي يقوم بها علماء الطبيعة، كل يوم، حول تكوين العالم.<sup>10</sup>

ثانياً: خروج الإنسان من حالة الطبيعة هو خروج طبيعي، الأمر الذي يمكن فهمه في اتجاهين، هما: يتمثل الاتجاه الأول في كون أسباب طبيعيتها هي التي أدت إلى تكون المجتمعات. والاتجاه الثاني يتجلى في أنه وبفضل خاصية الاكتمال<sup>11</sup> المطبوعة في الإنسان بشكل فطري ننزع إلى الخروج من هذه الحالة.

<sup>8</sup>- J-J.Rousseau, Réponse (Paris, 10 Septembre 1755)

<sup>9</sup>- "تلك فكرة فصل في موقف روسو من حالة الطبيعة. كثيرون، بدءاً بفولتير توهموا أن روسو من دعاة العودة السذج إلى الطبيعة والمشى على أربع قوائم كالبهائم، والحال أن الطور الطبيعي عنده إنما هو نموذج نظري سالب (إبستيمي خالص) يستخدمه استخدماً ((افتراضياً شرطياً)) لتفسير الطور المدني. وأما على المستوى العملي فإن تعاليم الطبيعة دستور أمثل يهتدى به دون أمل تحقيقه. يتابع روسو في هذا الكتاب منطقاً جدلياً معقداً ... يدور على محور مركزي: مبدأ قابلية الكمال Perfectibilité، وهو مبدأ معياري من المفترض أن يسمو بالإنسان نحو أعلى درجات الكمال والسعادة. غير أن سوء التنشئة الاجتماعية (الملكية الخاصة والتفاوت المستقران بالاصطناع) جعلت الإنسان يتردى إلى أسفل الحيوانية، فصارت الحالة الطبيعية أفضل من حالة المدنية، أي أفضل من حالة العقل والقانون. يناصب روسو العداء الوسائلية ((العقلانية)) التي تقصر الغاية على التقدم الحضاري ((الكمي))، وهو مفروغ منه. أما ما يراه جديراً بالفكر الأصيل فإنما هو تعديل العقل بالحكمة، والمعارف بالفضائل، والتقدم بالصفات الاجتماعية، والحرية بالمساواة، وترقيات الفرد بسعادة النوع." جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، مصدر سابق، ص. 53 الهامش 3.

<sup>10</sup>- المصدر نفسه، صص. 66-67.

<sup>11</sup>- "هناك صفة نوعية جدا تميز بينهما [ الإنسان والحيوان ] ولا يمكن أن تكون محل اعتراض، ألا وهي ملكة التكامل [ التحسن ] La faculté de se perfectionner، وهي ملكة إن ساعدتها ظروف مواتية قامت بتنمية كل ما عداها من الملكات الواحدة تلو الأخرى، وهي كامنة فينا سواء في النوع أو في الفرد." المصدر نفسه، ص. 84.

"هذا المفهوم من ركائز نسق هذا الخطاب الرئيسية، ومحرك فلسفة التاريخ لا في هذا الكتاب وحسب وإنما في مجمل فكر روسو. ويعني استعداد الإنسان بالفطرة للتحسن والاستفادة ابتغاء للخير وكمال الصفات، والتدرج نحو الغاية القصوى

**ثالثاً:** العودة إلى حالة الطبيعة أمر غير ممكن،<sup>12</sup> بل هو أمر غير مرغوب فيه أصلاً. إن الوصف الذي أعطاه روسو للإنسان المتوحش يبين أن هذا الأخير يبقى سجين غرائزه المرتبطة بحاجاته الفيزيائية الأمر الذي يبقى عليه كالبهيمة.

لهذه الاعتبارات لا يمكننا أن نعتبر روسو بدائياً Primitive، وإنما هو طبيعي، مشروعه يركز على إحياء الطبيعة في الإنسان حتى ولو لم يعد إنسان الأزمنة الغابرة. ويمكننا أيضاً أن نستجلي معنيين أساسيين لكلمة الطبيعة في فكر روسو من خلال ما سبق:

يتجلى المعنى الأول للطبيعة عند روسو في العالم الداخلي عند الإنسان الذي لازال على حالته الأصلية سواء في الفرد أو في النوع والذي لا يطاله التغيير. فمحصلة غرائزنا وميولنا الأصيلة وما فطرنا عليه من قوى داخلية منحتنا إياها الطبيعة يمثل مضمون الطبيعة الإنسانية. فحتى وإن توارى ما هو طبيعي فينا عن أنظارنا، فهذا لا يعني أنه لم يعد قائماً فينا وهذه الطبيعة خيرة بكل ما تنطوي عليه من غرائز وميول وقوى وملكات داخلية، لأنها صناعة كونية إلهية وليست من صنع الإنسان. لذا وجب على التربية أن تتخذ من الطبيعة نموذجا لها وأن تسهر على تطوير هذه الاستعدادات وفق الترتيب والنظام الطبيعيين مع الحرص على حماية الطبيعة فينا من كل ما من شأنه أن يفسدها بما في ذلك العلاقات الاجتماعية.

---

حتى دون بلوغها. وهي بالتالي قريبة جدا من التقدم، ولكنها تظل شديدة التباين من عديد الجهات، فالتقدم كمي بينما قابلية الكمال كيفية وأخلاقية... أما فكرة الكمال في الإنسان فهي من اختراع الأنوار، ونعثر عليها في النصوص الكبرى (تورغو، كنت، روسو، كوندورسيه)، ومعها فكرة التقدم والحضارة والسعادة. وقيل إن اشتقاق كلمة Perfectibilité من وضع روسو نفسه في الخطاب الذي نحن بصده (1755) [خطاب أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر]، ولكن إذا كان روسو أول من نظر به وله، فإننا نعثر عليه في نص لتورغو منذ 1750. "المصدر نفسه، صص. 84-85.

12- "إن الطبيعة البشرية لا تعرف عودة إلى نقطة بدئها ولا يمكنها البتة العود إلى أزمنة البراءة والمساواة التي فارقتها." انظر:

Jean-Jacques Rousseau, VOLUME 11. Rousseau, juge de Jean-Jacques. Dialogues, in Collection complète des œuvres, Genève, 1780-1789, vol. 11, in-4°, édition en ligne www.rousseauonline.ch, version du 7 octobre 2012.p.292.

أما الدلالة الثانية للطبيعة فتتحدد بالطبيعة اللااجتماعية للوجود البشري. لقد افترض روسو أن الإنسانية كانت في العهود الغابرة تعيش حياة طبيعية سابقة للحضارة والثقافة وهي حالة الطبيعة. كان الناس في حالتهم الطبيعية - كما يصورهم في كتابه "مقالة في العلوم والفنون" - يعيشون حالة إنسانية تتميز بأصالتها وسموها وعظمتها إذ كانت حياة الناس البدائيين تخلو من الحق والكراهية والحسد. إنها حياة أمنة يتفانى فيها الإنسان في خدمة الإنسان ويضحى فيها من أجل الآخر بدافع التحنن والرحمة التي فطرت عليهما الطبيعة الإنسانية. لذلك كانت "عناصر الشقاء المشتركة بيننا هي التي تدفع قلوبنا إلى الإنسانية. فما كنا لنحس أننا مدينون للإنسانية بشيء لو لم نكن بشرا".<sup>13</sup>. وعليه فالإنسان ينزع للارتباط بالآخرين والاجتماع بهم لا بمقتضى طبيعته وإنما بموجب "ضعف الإنسان ... الذي يجعله اجتماعيا".<sup>14</sup> فالارتباط في الحقيقة دليل على النقص أو الحاجة. ولو كان كل واحد قادرا على أن يكفل ذاته بذاته لما فكر على الإطلاق في الارتباط بالآخرين.<sup>15</sup> وحتى ذلك الارتباط الذي تم فعلا فإنه منقض بانقضاء علته وجوده، فـ"ما أن تنفك هذه الحاجة، حتى تنحل الرابطة"<sup>16</sup> التي تمت.

في هذه الحالة الطبيعية كان الأفراد يعيشون دونما إكراه اجتماعي الناس يأكلون ما يجمعون ويعيشون في ظل سمو أخلاقي يفيض عليهم بكل معاني التسامح والمحبة التي كانت قانونا كليا يحكم الوجود الإنساني برمته. إلا أنه ومع ظهور الملكية الخاصة<sup>17</sup> للأرض مع تدجين الحيوان مع اللحظة التي بدأ فيها الإنسان يقول لأخيه الإنسان هذه لي وهذا لك، بدأت مرحلة الجشع والطمع والفرع وبدأ الصراع الإنساني نحو مزيد من السيطرة والتسلط والاستبداد. وظهر الحاكم القوي الذي فرض على

13- جان جاك روسو، إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، مصدر سابق، ص.179.

14- المصدر نفسه، ص.179.

15- هذه الفكرة يقرها روسو بشكل واضح في مؤلفه إميل، ص.179.

16- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة وتقديم وتعليق عبد العزيز لبيب، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، 2011، ص.79.

17- يرد روسو أصل الاجتماع المدني إلى الملكية الخاصة: "إن أول من سور أرضا وعن له أن يقول "هذا لي"، فوجد أناسا لهم من السذاجة ما يكفي لكي يصدقوه، كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني." جان جاك روسو، خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر، ترجمة بولس غانم، تدقيق وتعليق وتقديم عبد العزيز لبيب، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، 2009، ص.117.

الجماعة قوته وبسط جناح سلطانه. فتحول الإنسان إلى عبد لأخيه الإنسان. فظهرت المظالم والشقاء وامتد البؤس الإنساني ليضع الناس جميعا في حالة استلاب واغتراب. فالحالة الطبيعية هنا قد انتهكت وفقدت عذريتها وأصالتها ونقاء انتمائها وصفاء وجودها. لقد انتهكت الطبيعة الإنسانية وندست طهارتها مع ولادة الثقافة والملكية وصولا الطغاة من حكام. وهذه الأفكار الطبيعية هنا تجد مدها في كتاب روسو مقالة في أصل التفاوت بين البشر حيث يبين لنا كيف تطورت الإنسانية من حالة الطهارة والحرية إلى حالة العبودية والقهر. فضلا عن كل هذا يرجع روسو ظهور التجمعات البشرية إلى "عمل الطوارئ الطبيعية كالطوفان المحلي أو كاندفاع سيول البحر وانفجارات البراكين وهزات الأرض الكبرى والحرائق التي تضرها الصواعق والتي كانت تهلك الغابات، إن كل ما كان أخاف السكان المتوحشين لأرض ما وشتتهم، قد جمعهم من بعد ذلك لكي يتحدوا في جبر ما اشتركوا فيه من الخسائر"<sup>18</sup>. وهذا دليل آخر على أن الاجتماع يتم اضطرارا لا اختيارا.

إذا كان كتاب "العقد الاجتماعي" يسن لنا إمكان نشوء نوع من الحياة الاجتماعية المؤسسة على مبدأ يتم استنباطه من معرفة الطبيعة الإنسانية ويؤكد أن حقوق الإنسان الوحيدة هي المضمنة في قوانين طبيعته الخاصة، فإن مؤلف "إميل" ينص على أن تمتح العملية التربوية مبادئها من الناموس الطبيعي<sup>19</sup> وتجعل منه منطلقا لتصوراتها وأفعالها عوض الانسياق وراء مسوغات مستمدة من الحالة المدنية والجهل الفاضح بالطفولة وخصائصها.

ويمكننا أن نقف على دلالة ثالثة لكلمة "طبيعة" أوردها روسو في مؤلف "إميل" عند تمييزه بين الطبيعة والعادة. فما هو طبيعي في الإنسان لايؤول إلى الزوال في حين أن ما يتم اكتسابه بفعل العادة مصيره الزوال بمجرد انتفاء شروط وجوده. فإذا "قيل إن

---

18- جان جاك روسو، محاولة في أصل اللغات، تعريب محمد محبوب، تقديم عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، تونس، (د.ت.)، ص. 60  
19- يؤكد روسو على أن التوصل إلى معرفة هذه القوانين من الأمور الصعبة ولذلك فهي لا تكون كذلك إلا بالبحث الدؤوب شأنها في ذلك قوانين العلمية.

الطبيعة إن هي إلا العادة، فما معنى هذا؟ ألا توجد عادات لا تتكون إلا قسرا، ولا تقضي على الطبيعة مطلقا؟ خذ مثلا العادة التي تتكون عند النبات حين يحال بينه وبين اتجاهه الرأسي. ولكن حين يترك للنبات مطلق الحرية، يستمر في الاتجاه الذي أجبر عليه، إلا أن كل امتداد جديد للساق الأصلي يترد إلى الاتجاه الرأسي. وكذلك ميول الناس. فما لبث المرء على حالته، احتفظ بالعادات التي أقحمت على طبيعته، ولكن متى زالت تلك الحالة انقطعت العادة وارتد الحال إلى الطبيعة.<sup>20</sup> ولذلك اعتبر روسو التربية عادة: إما أن تكون هذه العادة متوافقة مع الطبيعة وإما أن تكون متعارضة معها. وروسو يدعو للأولى ويمقت الثانية.

ومهما يكن الأمر فالخير كامن في الطبيعة. ومن أجل خروج الإنسان المدني من حالته المساوية يتوجب عليه أن ينشد العودة إلى الطبيعة في الإنسان. لقد جاء كتابه "العقد الاجتماعي" دعوة مطلقة للعودة إلى حالة الطبيعة بما هي مثال أعلى<sup>21</sup> للمسلم والرحمة وإحياء طقوس الحرية والمساواة التي كانت تسود المجتمعات الأصلية قبل أن يلفها الفساد. ولذلك لن يتم التحرر من رق العبودية والقهر إلا بفضل بناء الإنسان وفقا لمبدأ الطبيعة وروحها.

---

20- جان جاك روسو، إميل أو تربية الطفل من المهد إلى الرشد، مصدر سابق، ص.27.  
21- يمكننا أن نعتبر أن حالة الطبيعة فكرة منظمة، حتى وإن كانت غير واقعية فهذا لا يعني أن الرغبة في تحقيقها تبقى غير مشروعة.